

اللغة بين الفطرة والاكْتساب

Research Summary:

Language learning Between instinct and acquisition
The phenomenon of language learning is gaining a growing importance in the modern linguistic lesson. It is not possible because human understanding of oneself and its location in its surroundings is closely linked to language. In language and language alone, one can communicate with one's surroundings and can picture, identify and interpret this environment. And directly to the role of acquiring language in the life of the individual in the linguistic community, by which he remains able and constantly to know his environment. The linguists and psychologists have been preoccupied with the phenomenon of unique and wondrous "acquisition of language" and have given it a great deal of attention because it is one of the most recurrent and studied topics in modern linguistics. It is one of the most controversial and controversial areas. Therefore, this research will conduct a preliminary interview between them

Search keys

Language - instinct - acquisition

ملخص البحث:

تكتسب ظاهرة تعلم اللغة أهمية متنامية في الدرس اللغوي الحديث ، ولا يمكن ؛ لأن فهم الإنسان لنفسه ولموقعه في محيطه مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة ، إذ باللغة وباللغة وحدها يستطيع المرء التواصل مع محيطه ، وبها يتمكن من تصوير هذا المحيط وتحديده وتفسيره ، وفي هذا كله إشارة صريحة ومباشرة إلى دور اكتساب اللغة في حياة الفرد في الجماعة اللغوية ، إذ به يبقى قادراً وباستمرار على تعرف بيئته . وقد انشغل علماء اللغة وعلماء النفس بظاهرة " اكتساب اللغة " الفريدة والعجيبة ، ويولونها اهتماماً كبيراً ، لأنها من أكثر الموضوعات تجدداً ودراسة في اللسانيات الحديثة ، ومن أكثر المجالات التي تنازعتها ومازالت تتنازعها مذاهب وتيارات ومناهج بحث متشعبة . ولهذا سيتولى هذا البحث إجراء مقابلة أولية بينهما .

مفاتيح البحث

اللغة - الفطرة - الاكْتساب

اللغة

بين الفطرة و الاكْتساب

١ - مقدمة :

تكتسب ظاهرة تعلم اللغة أهمية متنامية في درس اللغوي الحديث ، ولا يمكن التقليل من شأنها ؛ لأن فهم الإنسان لنفسه ولموقعه في محيطه مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة ، إذ باللغة وباللغة وحدها يستطيع المرء التواصل مع محيطه ، وبها يتمكن من تصوير هذا المحيط وتحديدته وتفسيره ، وفي هذا كله إشارة صريحة ومباشرة إلى دور اكتساب اللغة في حياة الفرد في الجماعة اللغوية ، إذ به يبقى قادراً وباستمرار على تعرف بيئته .

فعلماء اللغة ، وعلماء النفس انشغلوا وما زالوا ينشغلون بظاهرة " اكتساب اللغة " الفريدة والعجيبة ، ويولونها اهتماماً كبيراً ويعيرونها كثيراً من جهدهم ووقتهم ، لأنها من أكثر الموضوعات تجديداً ودراسة في اللسانيات الحديثة ، ومن أكثر المجالات التي تنازعتها ومازالت تتنازعها مذاهب وتيارات ومناهج بحث متشعبة .

وإيماناً مني بتعدد التيارات الباحثة في موضوع اكتساب اللغة ، واستناداً إلى مبدأ تعدد وجهات النظر التي تتناول الفكرة نفسها ، سأحاول في هذا العمل تسليط الضوء على قضية مهمة ومشكلة جد بارزة هي : هل تعلم اللغة غريزي / فطري ؟

إن مناقشة هذا السؤال ، ودراسته تفصيلاً وتحليلاً يضعان الباحث وجهاً لوجه أمام مذهبين أساسيين لكل منهما رؤيته الخاصة في

هذا الباب ، يتحدث الأول عن الاستعداد الطبيعي لدى الإنسان ، ويتحدث الثاني عن دور محاكاة الفرد المتعلم للمنجزات اللغوية لأشخاص يتخذهم قدوة له في اكتسابه للغة ما ، ومن النظرة الأولية إلى المذهبين أنفي الذكر يتضح أنهما يرتبطان إما بمستندات سلوكية أو بمستندات عقلية ذهنية ؛ ولهذا سيتولى هذا العمل إجراء مقابلة أولية بينهما

٢ - نظرة تاريخية في الآراء ذات الصلة بالأسس البيولوجية للغة :

لدراسة الآلية التي يتم بها نشأة اللغة عند الإنسان عموماً ، وعند الأطفال خصوصاً لا بد من تقديم عرض موجز جداً عن مواقف علماء اختلفت مشاربهم ؛ علماء نظروا إلى اللغة عند الإنسان من زوايا متعددة ؛ دينية وفطرية وفلسفية .

ولكي تكتمل هذه الصورة أحببت أن أسرد بإيجاز تام بعضاً من هذه المواقف آملاً في تسليط الضوء على طبيعة النظرة إلى اكتساب اللغة عبر العصور وصولاً إلى الجهود المعاصرة والتيارات العلمية الحديثة المتشعبة التي تمتلك وسائل بحث متطور.

فلقد جاء في الأساطير التي تتحدث عن خلق الإنسان أن اللغة من خصائص الإنسان الفطرية كالسمع والبصر ، يكتسبها بمساهمة حواسه ، وهي ليست جزءاً من مهامه الثقافية والاجتماعية ، إنما هي حاسة متميزة عموماً ، وكل ما هو طبيعي لدى الإنسان هو من أصل ربّاني وهبة مكتسبة أو موهوبة من الله (١) .

فتصبح القسبة الهوائية هي المسؤولة عن إنتاج الصوت ، وتصبح اللغة هي نتاج تحويل Modulation الصوت من خلال تحريك اللسان والشفنتين^(٥) ، على حين تنتج أصوات الحيوانات بتأثير الهواء في جدران القسبة الهوائية^(٦) . ورفض فكرة تكون اللغة البشرية من نداءات وأصوات أو من تعابير الإحساس الملاحظة عند الإنسان والحيوان .

ولاحظ شتاينتال هنا أن " الصوت -بنظر أرسطو - لا يشكل كلمة بنفسه ، أما عندما يستعمله الإنسان رمزاً فإنه يصبح كذلك " والرموز المنطوقة (في اللغة البشرية) لا تساوي التعبير عن الأحاسيس عند الأطفال أو الحيوانات ، إذ إن الصرخات الحيوانية لا يمكن أن تجمع في مقاطع ولا يمكن أن تعود إلى مقاطع كما هو الأمر في اللغة البشرية " ^(٧) واعتمد في موقفه هذا من اللغة على المقابلة اليونانية بين nomos / physis وجمعهما كأساسين من أسس اللغة ، فعد اللغة قانوناً طبيعياً ، وعد دلالة الكلمة من صنع الإنسان^(٨) .

وأول من فكر بأصل اللغة ، وعدها وظيفة عضوية/بيولوجية /كالسمع والرؤية المنحدرين من الطبيعة هو "إبيكر ٢٧١-٣٤١ " ^(٩) ، كما أن القرون الأولى قد أظهرت اهتمام " كليروس" والمفكرين باللغة ، وكان اهتمامهم بالفروق اللغوية أقل من اهتمامهم بعلاقة الإنسان بالله ، فاكتفوا بزعمهم " بسيادة الله على اللغة " ^(١٠) ، وفي القرون التالية غاب المنظور العضوي للغة ما عن الذهن أبداً ،

وقد عني الفلاسفة باللغة منذ غابر الأزمان، وما محاولة الملك المصري " بسامينكوس ٧٠٠ ق م سوى محاولة يمكن أن تصنف بين العلم وعلم الأساطير ، إذ يحكى أنه كان قد حاول ترك طفلين صغيرين - لراعيي أغنام - ينمون وحيدين دون أن يتكلم معهما أحد ليلاحظ ما اللغة التي يمكن أن يتحدث بها ^(٢) .

ولهذه التجربة هنا أهميتها ؛ لأنها توصل إلى القناعة بأنه حتى الأطفال الذين يتركون وحيدين يكتشفون لغة لأنفسهم ، وبسامينكوس أراد بهذين الطفلين أن يكتشف اللغة الأقدم ، ولم يشكك البتة في كون الأطفال الذين يعيشون في عزلة لغوية يكوّنون لغة أيضاً ^(٣) .

وأما أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق م) فقد كان اهتمامه باللغة ذا طابع علمي وفلسفي ، ولهذا فقد أمعن النظر في لغة الطفل ، فوجد أن أعضاء نطق الطفل ، والقدرة على فهم المنطوق - تنمون منفصلين عن بعضهما ؛ الأمر الذي ترتب عليه تعلم اللغة على مراحل ، وقدم شروحات عن سبب كون الطفل قادراً في وقت مبكر على فهم شيء أكثر من قدرته على الحديث ^(٤) ، ففي كتابه عن الحيوانات - تفكّر في التمييز بين لغة الإنسان ولغة الحيوان ، ورأى أن اللغة الحقيقية موجودة عند الإنسان فقط ، وحجته البيولوجية استندت إلى تفسيراته التي ارتبطت بالتفريق بين اللغة والصوت وإلى تصوراته الفيزيائية عن إنتاج الصوت . ورأى أن تأتأة الأطفال ولجلجلتهم ناتجة عن عدم اكتمال قدرتهم على مراقبة لسانهم ،

وكان للتأويل الديني الذي تمثله علماء اللاهوت تأثير كبير جداً في النظرية اللغوية. وفي القرن الرابع رأى المفكر " أوغستينوس ٤٣٠-٣٥٤ " أن أصل اللغة في العقل البشري ، وشبه النمو اللغوي عند الأطفال بالتطور " Evolution " (١١) ، ولهذا فقد خصص لتعليم اللغة " في الاعترافات " فصلاً كاملاً ، أحس فيه بالعمل التعليمي الخاص من خلال ملاحظته القوية وحدة نكاته ، وكان الباعث الرئيسي له إلى ذلك هو **المحاكاة** ، وكان للإبداعات اللغوية العفوية عند الأطفال أهمية كبيرة جداً عنده : " لم يعلمني الكبار الكلام بطرحهم الألفاظ أمامي وفق نظام تعليمي محدد ، إنما تعلمته بذاتي عن وعي مستعيناً بعقلي الذي وهبتي إياه يا ربي . . " (١٢)

وفي بداية العصر الوسيط - ومع نشأة الشولاستيك - حظيت اللغة من جديد باهتمام كبير فكتب " بيتر أبلارد " - وكان أبرز فيلسوف لغوي في عصره - بأن التسميات المختلفة للشيء نفسه لاختلاف اللغات لا يمكن أن تؤدي إلى دلالات مختلفة ؛ لأن الدلالة هي جزء من الطبيعة ، ولأن الناس أينما كانوا يرون الشيء نفسه ، ويتمنون أن يكونوا قادرين على إلحاق قدر كبير من الأصوات بتسمية الشيء الواحد ، فاللغة ليست هبة إلهية إنما يسيطر الإنسان عليها بعقله ، ولا يغدو عبداً لها (١٣).

النحو "بطرس هيلبي " قد رأى أن اللغات واللهجات جميعها يمكن أن توصف وتبويب بالعقل بشكل منظم في إطار نظام نحوي (١٤) . فمعظم مفكري العصر الوسيط أرادوا الفصل بين القدرة اللغوية الطبيعية واللغة بوصفها نتيجة من نتائج الاختراع البشري الواعي (١٥) ، فهاهو " كايزر فريدريش ١٢٥٠-١١٩٢/٩٣ " قد فتنش عن أقدم لغة طبيعية مكرراً تجربة " بساميتيكوس " التي لم تنجح نظراً لوفاة الأطفال (١٦) . وهاهو " دانتي أليجيري ١٣٢١-١٢٦٦ " قد أظهر اهتمامه بلغة الطفل في مواضع كثيرة من كتابه ، وقدّمت دراساته على الرغم من سطحياتها أفكاراً مقبولة التصور والافتراض ، فمعه بدأ الفصل بين الإلهيات والفلسفة اللغوية ، ففي الكوميديا الإلهية وفي كتاباته عن النظرية اللغوية جعل التفكير في أصل اللغة من وظائف علم اللاهوت اللغوي فوضع بذلك حجر الأساس لنشوء نظرية عالمية عن اللغة سعى إلى توسيعها إلى المجالات اللغوية الأخرى ، إذ لم يعد التنوع اللغوي يعتبر ضرباً من العقاب الإلهي الذي نزل من برج بابل .

وعدّ " توماس فون آقوين " - الممثل للموقف المدرسي - اللغة أداة تفاهم بين البشر بالدرجة الأولى ، ولم يعدها أداة للبحث عن الحقيقة (١٧) ، واستغرق فصل تاريخ اللغة عن الإرث الديني زمناً ، وكان الشعراء من أوائل من اهتموا باللغة وما زالوا .

لقد انفصل البحث في الطبيعة عن الفلسفة في القرن السابع عشر ، وساهم " رينييه

والنظرة الطبيعية للغة هي نتاج آراء كثير من علماء العصر الوسيط ، فها هو عالم

منتصف القرن الثامن عشر لم يعد العقل يعد جزءاً من الطبيعة .

إن الاتجاه الطبيعي لـ " جوزيف بريستلي ١٧٣٣-١٨٠٤ " انطلق من اعتقاده بأن تفاهم الكائنات هبة من الله ، وأن اللغة تشبه النباتات التي تنمو وتزدهر وتذبل ، وأن البناء اللغوي " لم يكن مرة نتيجة مخطط ، إنما نشأ بالصدفة وبالصورة التي تناسب أعضاء النطق البشرية " (٢١) ، ولهذا رأى أن السعي الجاد وراء إثبات قواعد الاستعمال اللغوي ليس ضرورياً ، لأن اللغة تخضع لقانون طبيعي " (٢٢) ، وجان جاك روسو " ١٧٨٨-١٧١٢ " هو أول من أظهر في عمله " Emile " المزية الخاصة لنمو الطفل ، واعتقد أن الإنسان قد وضع لغته بنفسه بعد أن نَمَى الجماعات وكشف كفاءاته ، فصار بذلك كائناً اجتماعياً عاقلاً (٢٣)

و ظلت اللغة بوصفها وظيفة فكرية موضعاً للتأمل الفلسفي بالنسبة إلى معظم مفكري هذا العصر، ولم يكن للسؤال عن أصل اللغة أهمية مميزة في العلم فقط بل وفي الأعمال الفكرية اليومية أيضاً ، وارتبط هذا السؤال عن الأهمية كل الارتباط بالتداخل الوثيق بين الفكر البشري واللغة البشرية ؛ ولهذا عدت الأفكار المرتبطة بأصل اللغة أفكاراً ذات صلة بالفكر الإنساني أيضاً . ونقطة الخلاف الأساسية التي تجلت هنا هي نتاج الموقف الذي تساءل : " هل الإنسان هو الذي ابتدع لغته عن طريق الاستعمال ، أم أنها

ديكارت ١٦٥٠-١٥٩٦ " مساهمة فاعلة في هذا الفصل ، حين رأى أن الإنسان يتميز عن الإنسان الآلي بالعقل واستعمال الألفاظ والإشارات ، كما أنه فصل مفاهيم اللغة والنطق وكذلك اللغة والتعبير عن المشاعر ؛ لأن اللغة عنده هي الوحيدة المتميزة إنسانياً ، ولهذا أراد أن يثبت أن روح الإنسان مفصولة تماماً عن الجسد ، وكان لهذا الفصل أثره الكبير في البحوث العلمية الأخرى ، إلا أن الباحثين في زمانه لم يقبلوا هذا الفصل بين الروح واللغة ؛ لأنهم كانوا يرون أن هذين الجانبين مرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً ، ولهذا الأسباب لم تستطع نظرة ديكارت عن الأساس البيولوجي للغة أن تفلح ، واهتمامه اللغوي كان يتجه باستمرار إلى علاقة اللغة بالطبيعة الحقيقية للأشياء ، فعدّ إنتاج اللغة قدرة مولودة مع الإنسان واعتقد أيضاً أن باستطاعة حتى الأطفال الناشئة اكتساب لغة عادية (١٨)

صحيح أن " جوتفريد فيلهيلم لايبنيز ١٦٤٦-١٧١٦ " قد كان على قناعة بكون القدرة اللغوية هبة إلهية ، إلا أنه كان يعتقد أن شكل اللغة تحدده غريزة طبيعية ما (١٩) .

و " جورج لويس دو بوفون ١٧٠٧-١٧٨٨ " هو أول من تحدث في القرن الثامن عشر عن التفريق الأساسي بين الحيوان والإنسان ، فرأى أن لدى الإنسان قدرة على الكلام ؛ لأنه عاقل ، أما الحيوان فغير قادر على هذا ؛ لأنه لا يمتلك الكفاءة البشرية للتفكير والربط بين المفاهيم (٢٠) ، وفي

يستند إلى وقائع ، وفي النصف الأول من هذا القرن كان فقهاء اللغة " هم أول من عني بالبحث اللغوي إذ وجهوا جل اهتمامهم إلى دراسة لغة خاصة بوصفها تعبيراً عن ثقافة خاصة " (٢٨) ولم يكن الأساس البيولوجي ذا أهمية حاسمة عندهم لأنهم أعطوا السمة القومية للغة المفردة الدور الحاسم .

ومن هنا فإن " تعليقات " فيلهيلم فون همبولدت ١٧٦٧-١٨٣٥ ذات الصلة بالأساس البيولوجي للغة كانت مهمة جداً لمتابعة البحث اللغوي ، فتمثل همبولدت نظرة " هيردر " إلى الفكر بوصفه جزءاً من التكوين البشري الطبيعي ، ثم وسعها ، فكانت اللغة بالنتيجة برأيه غريزية فطرية عند الإنسان الذي يقدر على اعتبار " الدلالة المسندة إلى صوت أو كلمة مفهوماً " (٢٩) .

لقد كان أصل اللغة عنده ينبع من حاجة الإنسان إلى الكلام ، وحاجته إلى أن يكون قادراً على الكلام ؛ لأن " القدرة اللغوية صفة فيزيولوجية مميزة للإنسان " (٣٠) ، وكان علم اللغة بنظره أمام مهمتين أساسيتين هما الدراسة الدقيقة للكفاءة اللغوية للإنسان من ناحية ، وعدم إعطاء دراسة اللغة المفردة الأهمية الكبيرة من ناحية ثانية .

ويرى هيلبيغ أن نظرة همبولدت إلى اللغة قد وضحت أول محاولة نظرية لعرض العلاقة بين اللغة والفكر والترابط بين اللغة والمجتمع على حد سواء ، والفلسفة الألمانية التقليدية التي هو من أتباعها هي التي دفعته إلى " اعتبار كل الظواهر المرتبطة باللغة هي تعابير

هبة إلهية " (٢٤) في الوقت الذي عُدَّ السؤال فيه عن الأساس العضوي اللغوي أمراً ثانوياً .

وكان لـ " يوهان جوتفريد هيردر ١٧٤٤-١٨٠٣ دور مميز في حل هذا الخلاف حين رأى في كتابه " حول أصل اللغة " ، أن اللغة هي نتاج الفكر البشري وهي جزء منه ، وأن اللغة والفكر كليهما هما المميزان للإنسان ، ورأى أن الحاجة إلى الكلام البشري قد نشأت حين أراد الإنسان أن يتكيف مع بيئته بكل ما فيها من ظروف ؛ ولهذا كانت اللغة عنده وليدة التطور العقلي والفكري الذي رُمى إلى صياغة العالم الخارجي ، فعد الترابط بين اللغة والكلام نوعاً من النموذج التطوري الذي كانت اللغة فيه تخص نقطة النهاية بالصياغات الفكرية المتطورة باستمرار .

و " الحالة الأولى من وعي الإنسان لا يمكن أن تتحقق من دون كلمة الروح ، فتصبح حالات التدبر كلها مقيسة فيه لغوياً ، وتصبح سلسلة أفكاره سلسلة كلمات " (٢٥) ومن قول هيردر يتضح لنا كم هي وثيقة العلاقة بين الفكر والكلام ؛ لأن " الإنسان يحس بالعقل ويتكلم وهو يفكر " (٢٦) ويعلق ماركس على هذا فيرى أن هيردر بقوله هذا قد نقل اللغة من مجال الفلسفة إلى مجال الطبيعة ، وكشف بعداً جديداً أمام النظرية اللغوية ألا وهو تأسيس البحث اللغوي (٢٧) .

وأما في القرن التاسع عشر فقد تولد اهتمام بحثي مطرد بلغة الطفل حيث هيأت التيارات الفلسفية المعروفة آنذاك المناخ المناسب للاتجاهات الباحثة لوضع أسس علم

لغوي يمكنه أن يفترض أن لغة ما في العالم قد ابتكرها الفكر أو ابتدعها الإنسان بفكره ؛ لأن كل لغة قد نمت بالتدرج وعن وعي خلال مراحل طوال " (٣٤)

وفي نهايات القرن التاسع عشر لم يعد علماء اللغة يعنون بالكفاءة اللغوية نظراً لظهور اهتمامات جديدة ، ربما تكون قد تولدت من الأفكار الأخرى التي كانت سائدة

وأما في القرن العشرين فقد شهد علم النفس وعلم الفيزيولوجيا وعلم اللغة والعلوم الأخرى كلها تطوراً ملحوظاً أوصل إلى مناهج ومفاهيم ونتائج حديثة ، وعلى الرغم من هذا التطور الكبير للعلوم والمناهج والمعايير والأسس التي ظهرت ، ظل الاهتمام بالأساس البيولوجي للغة فاعلاً إلى يوم الناس هذا بوصفه نوعاً من التحدي أثاره كثير من العلماء ليدخلوا في سجال عميق ، وفي مقدمة هؤلاء تشومسكي الذي جاء بنظرية النحو التوليدي في ستينيات القرن الماضي فعَدَّ بذلك واضع حجر الأساس لعلم اللغة وعلم المعرفة الحديثين .

٣ - بدايات المذهب السلوكي (*) واتجاهاته

الأساسية :

أسس جون ب. واسطون ١٨٧٨-١٩٥٩ مذهب السلوكية في الولايات المتحدة الأمريكية

(*) - السلوكية هي مدرسة في علم النفس، بلغت أوج تأثيرها بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٦٠ ، وكانت ترفض دراسة الفكر على أنه غير علمي، وسعت إلى تفسير السلوك والتعلم عند الكائنات، بما في ذلك البشري، من خلال قوانين الإشراف بالمثير - الاستجابة

الفكر الناظم مسبقاً للأشياء " (٣١) ، ومواقفه اللغوية تتضمن وجهات نظر حاسمة كان لها الدور الحاسم في تأسيس علم اللغة المعاصر ، ومن أبرز آرائه في هذا الباب فصله بين اللغة بوصفها عاملاً وبوصفها طاقة (٣٢) ، وإيمانه بأن اللغة بعناصرها المحدودة تتيح لنا استعمالات غير محدودة (٣٣) .

وثمة سؤال مهم في هذا الباب ظهر على الساحة في منتصف القرن التاسع عشر دار حول مرجعية علم اللغة من حيث انتمائه إلى العلوم الطبيعية أو العلوم النظرية .

وأما نظرية " داروين التطورية ١٨٠٩- ١٨٨٢ " فقد تجاوز تأثيرها علم الأحياء والعلوم الاجتماعية ؛ لأن الإنسان عنده لم يتميز عن الحيوان باللغة ، فاعتقد أن اللغة متطورة عن محاكاة الأصوات الحيوانية ، والقدرة على ربط الأصوات المختلفة والأفكار فيما بينها هي فقط المميزة للإنسان ، ولهذا عدَّ تصوره عن اللغة نوعاً من النزعة الغريزية إلى الكلام .

ويرى " أحد مؤسسي فقه اللغة أن اللغة فن كالعمل وصناعة الخبز ، أما الكتابة فمن الممكن عرضها على نحو أفضل منها ، صحيح أن اللغة ليست غريزة أصلية لوجوب اكتساب كل لغة ، إلا أنها مختلفة كثيراً عن الفنون المعروفة ، لأن الإنسان لديه ميل غريزي إلى الكلام كما هو ملحوظ في وأوة الأطفال الصغار في الوقت الذي لا نجد فيه أي ميل غريزي لدى الطفل إلى العمل والخبز مثلاً ، وعلاوة على هذا ، ليس هناك فقيه

يكتفي السلوكي بقبول الوقائع المرصودة والمنظورة والحقائق المقيسة ؛ بمعنى أنه يعتمد على الظواهر السطحية^(٣٨) بشكل خاص ، وهدفه الأساسي هو توجيه البحث النفسي بكامله إلى السلوك المنظور للكائن الحي ؛ لأن " سلوك الكائن الحي هو الوحيد الذي يمكن أن يرصده الباحثون كلهم ، وبهذا فهو عام " (٣٩) .

ترجع طموحات " واسطون " هذه في حقيقة الأمر إلى مناهج العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء ... التي ظهرت بقوة في مطلع القرن العشرين ، وكان لها دور مثالي لديه الأمر الذي جعله يؤمن بوجود نوع من الالتقاء بين السلوكية و علم الفيزياء.

ويضاف إلى هذا أن توجهه إلى العلوم الطبيعية قد أدى إلى اكتفائه كلياً بالتصرفات والمحاولات التجريبية والعملية ، وقد عبر عن هذا بفرضيته " يستطيع الإنسان فهم الكائن البشري بشكل كامل حين يستعمل مناهج العلوم الطبيعية وأسسها ويوسعها ولاسيما الفيزياء منها " (٤٠) ، وافترض أيضاً أن الإنسان يمكن أن يُدرَس علمياً عن طريق المحاولات والتجارب المخبرية في ظروف طبيعية من أجل الوصول إلى نواظم التعليل النفسي لسلوكه " .

وكان للمذهب التجريبي أثره الكبير في السلوكية لأنه " اعتبر الخبرة أساساً لكل معرفة " (٤١) ورأى أن الخبرة تكتسب بالتفاعل مع المحيط خلال حياة الإنسان ، وتشتمل على قبول المعلومات والإفادة منها وتغييرها من جهة ، وتشتمل

، وظهر كتابه الأول الجامع عام ١٩١٣ " Psychology as the Behaviorist it الذي يتضح من عنوانه ارتباط الموضوع باتجاه وحيد الجانب في علم النفس ؛ لأن المنظور الوحيد الذي روعي هنا هو وجهة نظر الباحث السلوكي ، " وفي عمله إشارة واضحة إلى رفضه مناهج علم نفس الوعي الذي كان سائداً البنويوية " (٣٥)

لم يستحسن واسطون مذهب الاستبطان الذي كان يعني المراقبة الذاتية للأفعال الخاصة من خلال الباحث نفسه على الرغم من تحبيذ علماء نفس الوعي له ؛ لم يستحسنه لأن خطر الوقوع في الخيبة الذاتية وخطر الاعتماد على الانطباعات الخاصة فيه كبيران جداً لعدم استناده إلى وقائع موضوعية مسجلة. ولهذه الأسباب جميعها رفض مفهومي مهمين في علم النفس هما : " النفس والوعي " حين اعتبرهما مفهومي فكريين وميتافيزيقيين ، بل وذهب أبعد من ذلك حين " استبعد أفعال الوعي البشري من نطاق البحث كلياً " (٣٦)

وبناء على هذا كله عارضت السلوكية بوصفها مذهباً قائماً بذاته أي وصف لمضامين الوعي كالأحاسيس والأفكار والدوافع الداخلية^(٣٧) ، وثمة سبب آخر لهذه المعارضة هو عدم عد النفس والوعي بعدين فيزيائيين لوقوعهما خارج نطاق الدماغ ، وهذا الموقف المناهض لمذهب السلوكية وجد مسوغاته لاحقاً لدى بلومفيلدت في إطار الرؤى السلوكية العاملة في البحث في موضوع اكتساب اللغة .

تصوير لحجم حتميات المحيط المؤثرة في السلوك " أعطني مجموعة من الأطفال السليمين المتمتعين ببنية سليمة وجيدة ، وأعطني محيطي الذي أربيهم فيه ، أضمن أن أختار أي واحد منهم اعتباطاً ، وأربيه لأجعل منه متخصصاً في حرفة ما ، طبيباً ، قاضياً ، فناناً ، تاجراً وحتى شحاذاً ولصاً من غير أن أعتمد على مواهبه وميوله وقدراته وطبائعه وأصل أجداده ونسبه " (٤٥).

فالسلك الملاحظ عند الفرد إذاً هو استجابة للمؤثرات الخارجية دائمة التغير ؛ ولهذا يغير السلوكيون هذه المؤثرات الخارجية عن قصد ؛ ليلحقوا بها استجابة محددة ، لقد أخذوا هذه الطريقة من الباحث الروسي " إيفان بافلوف (١٨٤٨-١٩٣٩) الحائز على جائزة نوبل للسلام لتكون قاعدة لأبحاثهم ، فاستخدم العالم الروسي نموذج " إثارة / استجابة " مدخلاً لتجربته على الكلاب ، فأثبت أن سيلان لعاب الكلب لدى مشاهدة الطعام كرد طبيعي مباشر هو رد مشروط بالتدريب الذي تلقاه الكلب ، وذلك بربط تقديم الطعام بصوت جرس محدد ، فما إن يسمع الكلب صوت الجرس حتى يسيل لعابه ، حتى ولو لم يكن هذا الصوت مقروناً بطعام ، فيصبح سيلان اللعاب متولداً في الأصل مع تقديم الطعام وقرع الجرس ، ولهذا عد هذا البيان الاستجابي وحيد الجانب ضرباً من التكيف الطبيعي " (٤٦).

وبهذه الطريقة نجح الباحث الروسي في إحداث استجابة مثارة بمنبه محدد عن طريق

على التعبير عن ردود الأفعال التي تؤثر في المحيط بدورها من جهة ثانية ، وأثبت أنصار هذا المذهب أن " الخبرة هي السبيل الوحيد إلى التعلم " (٤٢) .

وبما أن عملية التعلم نفسها لا يمكن بالطبع أن تلاحظ بشكل مباشر ، فإن إحدى نتائج تغييرات السلوك الملحوظة قد تعود إلى نجاح التعلم ، ولهذا طور المذهب التجريبي الأساس المنهجي للتحقق من المعارف من خلال ملاحظة التغييرات السلوكية أو الخبرات ، وتمثل المذهب السلوكي هذا الأساس وطبقه على البحث في التجارب المجراة على الحيوانات أولاً .

وكان من أهداف السلوكية التوصل إلى أسس تغيير السلوك بغية التنبؤ بالسلوك المستقبلي " على أساس ما انصرم " (٤٣) كما أن السعي إلى مراقبة السلوك والتحقق منه كان من أهدافه النهائية، ولتحقيق هذه الأهداف استند الباحث السلوكي إلى السلوك الذي قد يلاحظ لدى الكائن الحي بشكل موضوعي ، وأول ما يدرسه هنا هو دور المحيط في المسبب للسلوك .

" فالسلوكيون يكتفون بالتركيز على أفعال السلوك التي يمكن تعرفها بشكل ظاهري ، وينكرون ما عدا ذلك إنكارهم لما قد يجري في جسم الشخص أو دماغه " (٤٤) ، ولهذا لا يفتش الباحث عن المسوغات في الفرد نفسه بل في محيطه أو في العوامل الخارجية المؤثرة من قريب أو بعيد في أفعاله وسلوكياته ؛ ولعل في قول " واسطون " الآتي صدق

لسلوكتها هو الرضا النهائي لديها ، ولهذا كله عد" تورنديكي " أن الرضا بما تحقق من خلال استجابة ناجحة رامية إلى التحرر هو الهدف ، واعتبر مثل هذا التعلم عبر النتائج تكييفاً آلياً ؛ لأن الهرة قد تعلمت آلية الفتح أو آلية الإفادة من آلة .

٤ - اكتساب اللغة من المنظور السلوكي

عند سكينر :

قرأ سكينر كتاب واسطون الذي كان مقرأً حين بدأ عام ١٩٢٨ دراسة علم النفس في جامعة هارفارد التي درّس فيها إلى حين وفاته عام ١٩٨٩ ، وبنى تحليلاته التجريبية^(٤٩) للسلوك ذات الطابع العملي والاختباري على الاتجاهات السلوكية الأساسية المدونة أعلاه ، فاستحسن " قانون التأثير " لتورنديكي استحقاقاً مميّزاً حين قال : " يعيش الناس في هذا العالم ، ويغيرون فيه ، ويتغيرون به أيضاً وذلك بناء على نتائج أعمالهم " ^(٥٠) ، إلا أنه لم يستحسن كثيراً فرضيات تورنديك عن تفاعلات الإثارة ورد الفعل واستنادها إلى القرارات الإرادية للكائنات .

لقد انتقد وضع النظرية بشدة ، ورفض في الأساس بناء نظريات حول الأفعال الداخلية غير المرئية عن الكائنات ، ولهذا فقد جمّع مواد تجاربه عن الحيوانات أولاً ثم قومها لاحقاً ، وتوسع هنا إلى درجة نقل فيها نتائج تجاربه على الحيوانات إلى السلوك البشري اللغوي مسوّغاً عمله هذا بقوله : " تفهم الإجراءات والعلاقات الأساسية التي تبرز

إثارة مشروطة فاستند عمله التعليمي إلى تزامن قرع الجرس وعرض الطعام في الزمان والمكان فتوصل بذلك إلى ما يسمى بالترابط المباشر بين الإثارة العفوية غير المشروطة والإثارة المشروطة . وعليه عدّ السلوكيون السلوك " نوعاً من الاستجابة لإثارات داخلية أو خارجية محددة مشروطة بالبيئة " ^(٤٧) ، وكانوا بذلك قادرين على التنبؤ بالاستجابة المناسبة حسب الإثارة المحددة بدقة، فميزوا هنا بين الاستجابة العفوية والاستجابة المشروطة .

كانت هذه النظرة السلوكية هي السبيل إلى تحقيق نظرة آلية جداً عن عملية التعلم وذلك باعتبارها عملاً مشروطاً ، حيث تتبع الإثارات والاستجابات الملحوظة بمعنى ما إلى آلية منظمة في تصور السلوكيين ؛ آلية اعتبرت قاعدة لدراسات أخرى أجريت على الحيوانات ؛ وهذا ما جعل السلوكية توصف بأنها آلية ومادية .

فهاهو " إدوارد ل. تورنديكي " قد ابتكر قانوناً أساسياً آخر للسلوكية هو " قانون التأثير " ^(٤٨) الذي يُختبر فيه التعلم من خلال النتائج المحققة ، فعد التعلم ضرباً من الربط بين الإثارة والاستجابة ، فوسع بمنظوره هذا نموذج بافلوف " إثارة / استجابة " وذلك بدراسته قضية الحيوانات المحبوسة في قفص ، التي حاول فيها الهرة التحرر من أقفاصها ، التي تعلمت فتح أقفاصها حسب مبدأ " المحاكمة والخطأ trial-and erroe " ، فأدركت أن التحرر من السجن بوصفه نتيجة

إلى الربط بمحفّز ؛ ولهذا فإنها تسمى بالسلوكيات الفاعلة ، وهذا ما جعله يعتبر ردود أفعال الصنف الثاني فاعلة ويصفها بقوله إنها " فعاليات تشتغل على البيئة " (٥٤).

وبما أن هذه الفعاليات الفاعلة هي التي تصنع القسم الأكبر من السلوكيات البشرية يوجّه الباحث جلّ اهتمامه إلى دراسة التكيف الفاعل (٥٥) ، ويرى أن تمييز الإثارة المحرّكة لرد فعل لا يولى الأهمية الأولى كما في نموذج التكيف التراثي عند بافلوف ، وإنما يعطى تعزيز السلوك الفاعل الأولوية في ذلك ؛ وهذا التعزيز يتكون من إثارة تتبع مباشرة لرد فعل مبعوث ، " وتغيير نسبة ظهور رد الفعل كنتيجة لتأثير التعزيز هو الفاصل عند سكينر " (٥٦) ؛ ولهذا ينظم تغيير شروط تعزيز الإثارة ليتوصل بهذا إلى كل المتغيرات ذات التأثير في احتمالية ظهور ردود أفعال فاعلة ، ويفترض وجود ردود فعل في ذاكرة الفرد يعبر عنها عفويًا لمجرد وجود إثارات خارجية خاصة مثيرة ، ومن الأمثلة التي يسوقها هنا "

- نقر الحمام

- بحث الفئران عن الغذاء

- نغغة الأطفال ووأوتهم

" فعلية إيجاد صوت مؤكدة بالقياس المشهورة ، حيث يصدر الطفل الصغير العديد من أصوات الكلام التي يجدها صعبة التنفيذ فيما بعد في أثناء تعلم لغة ثانية " (٥٧).

فالطفل يحوز في مرحلة الوأوة إذاً ذخيرة من الأصوات أكثر مما يحوزه فيما بعد ؛ فالأصوات غير الملفوظة في مرحلة الوأوة

خصائص سلوكية شفهية خاصة اليوم بشكل كبير جداً ، وتسمح بنقل معظم العمل التجريبي المسؤول عن هذا التقدم إلى النوع الآخر على الرغم من ثبوت خلو النتائج من قيود النوع ، فضلاً عن كون العمل الأخير قد أبرز إمكانية امتداد الطرق إلى السلوك البشري من غير أي تعديل جذري " (٥١) . ومن هذه الجمل المسوّغة يتضح وجود مبادئ وإجراءات أساسية مشتركة للتعلم بين جميع أنواع الكائنات الحية .

وفي كتابه " السلوك اللغوي ١٩٥٧ " وضّح بالتفصيل كيفية اكتساب اللغة كسلوك متعلّم ، عاداً اللغة مجموعة من العادات الكلامية المفردة والمتقنة بالتكيف والتحفيز والتعميم ؛ عادات تعرض شبكة موثوقة من الصلات الفاعلة بين التعابير اللغوية . (٥٢) ؛ ولهذا لم يستعمل هنا مصطلح اللغة عن عمد لإمكانية ربط هذا المصطلح بالإنتاج السماعي للأصوات بشكل كبير، إنما استبدله بمفهوم السلوك اللغوي طامحاً بمصطلحه الجديد هذا إلى إبراز المكونات السلوكية للغة ؛ لأن اللغة لم تكن أكثر من سلوك عنده (٥٣) و اعتمد في شرحه لتشكيل اللغة عند الطفل على تقسيمه السلوك إلى نوعين أو صنفين مميزين هما :

- ردود أفعال مثارة (منتزعة elicited)

- ردود أفعال معبر عنها (مبعوثة

emitted)

وتثار ردود أفعال الصنف الأول بوساطة المحفّزات ، ويكتفى فيها بسلوكيات الاستجابة ، أما ردود أفعال الصنف الثاني فليست بحاجة

ويصف سكينر مرحلة أخرى من مراحل اكتساب الطفل للغة بقوله : " كل طفل يصف العالم ، ويستجيب له ، ويكون له ردود أفعاله الخاصة به ، وحين لا يقدر على هذا يهرب إلى السؤال عن الألفاظ ، ومن هنا تنبع أهمية وصف سلوكه الخاص " (٦١).

هذا يعني أن الطفل لا يكتفي بتعلم وصف أشياء محيطة وموضوعاته ، وإنما يفتّر نتائج سلوكه اللغوي أيضاً ، كما أنه يكتسب ما ينقصه من مسميات اللغة وقوانين عملها عن طريق السؤال الدقيق ، ويرى سكينر " أن الطفل يعد التعزيز المعمم استناداً إلى المحفز اللغوي نوعاً صحيحاً من العلاقة المتناسبة مع المحفز الحالي " (٦٢)

إلا أن الباحث - وللأسف - لا يميز بدقة ماذا عنى بدقة بالرد الشفوي المناسب على المحفز المناسب ، وقد يكون وراء ذلك ما يسمى بالاحتمالات أو علاقات الارتباط بين الرد الشفوي وبين معزز معمم مشروط .

وتتألف السلوكيات العامة / المركبة -بناء على سكينر- من نماذج محددة من احتمالات السلوك ، والنموذج الذي قدمه عن شرح اكتساب الطفل للغة يتجاوز كثيراً اكتساب مفردات مستقلة ؛ لأنه رأى " أن الطفل في أثناء تعلم اللغة يكتسب كياسة الحجوم المختلفة ، فيتعلم كلمات مثل (دمية) ، وعبارات مثل (على المنضدة) ، وجملاً مثل (هرتي ستنام) " (٦٣).

فبالنكيف الفاعل إذاً يكتسب الأطفال مقاطع مختلفة من السلوك الشفوي ، كالألفاظ والتراكيب والجمل ، فيكونون بذلك قادرين

ليست تابعة للإثارة ، وتتحول في أثناء تعلم اللغة إلى أشكال لغوية فاعلة ؛ " فقصر الأصوات التي ينتجها الأطفال على الوحدات الصوتية المراد تعلمها يتم بالتنمية المختلفة للطفل عن طريق الجماعة اللغوية ، فإن توجه التعزيز منذ البداية إلى كل ما يشبه أصوات لغة الأطفال ، صار التعزيز مقصوراً أكثر على الإنتاج الصحيح للأصوات الضرورية / اللازمة " (٥٨) .

لم يكتف سكينر بمجرد الإشارة إنما حاول شرح هذه العملية عن طريق تجربة أجراها على الحمام ؛ تجربة دفع فيها الطائر الجائع عن طريق معزز في صورة حبوب قدمت له بعد كل حركة في الاتجاه الصحيح إلى تجاوز قفصه على طريقة الانتباه ، فيقر الباحث السلوكي بحتمية كون علاقات المعزز لدى اكتساب الطفل للغة مسهلة إلى حد ما .

وثمة شرطان آخران أساسيان لاكتساب الطفل للغة هما :

- السلوك الصدوي " echoic behavior " (٥٩)

- ودور الأهل

ويرى سارتر أن هذين الشرطين يعززان المحاولات الأولى للسلوك الصدوي المتضمن لمحاكاة الطفل للبنى الصوتية لدى الكبار ، بل قل إن الأطفال يتعلمون ألفاظاً من خلال ترديدها أمام الأهل أو بعدهم ، فيشير الأهل بإصبعهم مثلاً إلى الموضوعات المنطوقة بشكل صحيح ، وبهذه الطريقة يكتسب الطفل قسماً كبيراً من ذخيرة المفردات " (٦٠) .

صورة كلام ؛ لأنه قد أخرج كل قرار بشري هادف وقاصد عن نطاق الإرادة^(٦٩) .

ويرى تسيمباردو أن الطفل يتعلم بوساطة الإثارات المميزة " التعرف على الرموز التي تشير إلى احتمالية ظهور احتمال معزز ، في حال إنجاز رد فعل ما^(٧٠) ، وتمكن الإثارة المميزة للطفل بهذه الطريقة من التنظيم الذاتي لسلوكه الخاص من خلال مراقبة الإثارة ؛ لأنه تعلم في أي مقام وفي أي سياق يتوجه الرد إلى محفز .

ويعبر سكينر عن الهدف من بحثه التجريبي بما يلي : " إن الهدف الأخير لهذا البحث هو التنبؤ بالسلوك الشفوي ومراقبته "^(٧١)

ولسارتر موقف مميز هنا عبر عنه بقوله: صحيح أن الباحث يكشف نوع التراكيب التي يعتمد عليها السلوك اللغوي ، وكيفية اكتساب هذا السلوك إلا أنه يرفض أي تراكيب لغوية ذهنية وفطرية ؛ ولهذا فقد ميز نوعاً جوهرياً في اللغة ورفض أن يكون دور اللغة مجرد أداة للإرادة ، وبهذا عدّ الإنسان عنصراً متدرجاً ومتكيفاً "^(٧٢).

فالباحث السلوكي يعترف بكثرة إجراءات اكتساب اللغة عادةً إياها " أحد الأمثلة الأعم للتكيف الفعال "^(٧٣) في آن واحد .

صحيح أن هذه الدراسات المجردة للتغيرات السلوكية توصلنا إلى معارف أساسية بتراكيب عملية التعلم اللغوي ، إلا أن هذا الشرح يبقى ناقصاً ووحيد الجانب إن لم تبحث البنى التخزينية والاتصالية للدماغ .

على تكوين ردود شفوية جديدة في مواقف جديدة بناءً على هذه الذخيرة . والتعلم الفاعل والمتكيف يرتبط بهذا من جديد عن طريق الرد الشفوي والمحفز المعروف .

ونوع هذا المحفز وطبيعته هما اللذان يميزان كثرة ظهور الرد الشفوي المتشكل حديثاً ، ويميز سكينر هنا صيغ المديح (صح) أو صيغ المعاقبة (خطأ) التي قد تعيق استعمال رد شفوي أو تنميه بل وقد تؤدي إلى حذف هذا الرد اللغوي في حالة شاذة إذا ما تبعته عقوبة فورية .

" والجماعة اللغوية^(٦٤) هي المسؤولة عن تحديد التراكيب اللفظية ، والعبارات ، والجمل التي لا تعود إلى ذخيرة الطفل ؛ لأنها هي التي تثبت الردود اللغوية المرغوب فيها في النهاية عن طريق " مسار علاقات المحفز فيما بينها "^(٦٥) .

ويعد سكينر عملية اكتساب اللغة إلى حد ما نوعاً من التكيف الفاعل^(٦٦) . ونجاح السلوك اللغوي عنده مرتبط بتأثير سلوك الطفل اللغوي في المستمع الافتراضي بشكل مناسب ؛ ولهذا يرى أن شكل سلوك الطفل يناسب معايير مجتمعه أكثر مع الزمن " ^(٦٧) .

لقد بالغ سكينر بدور جماعة المستمعين في بعض النقاط ؛ لأن الواقع جعله يستنتج أن المتكلم يركز على مستمعيه ، وأن مستمعيه هم الذين يعرفون كلامه " ^(٦٨) ، وهنا يتضح سوء فهمه لوظيفة الاتصال البشري ؛ لأنه من غير الممكن أن يقرّ بتعبير فكري عن الإرادة في

٥ - الأسس البيولوجية للغة في القرن

العشرين

في توضيحاتي الآتية لميدان البحث في الأسس البيولوجية للغة أستند بشكل أساسي إلى ستيفن بينكر في كتابه " الغريزة اللغوية " الذي ظهر حديثاً ١٩٩٦ وقدم فيه معلومات وبيانات متنوعة عن هذا المجال .

وبينكر عالم معرفي استند إلى خبرات تشومسكي اللغوية ، وأثرى نظرتنا إلى جوهر اللغة وأسسها البيولوجية من خلال النتائج الجادة المستمدة من البحث المعرفي والدماغي ومن خلال الدراسات والتحليل المجراة على اللغة اليومية

تشومسكي وفكرته عن نحو شمولي :

حياة من دون لغة غير متصورة في عالمنا المعلوماتي ، فقد شكلت اللغة منذ الأزل موضوعاً مهماً للمناقشة ، وما زالت تعرض محالات بحثية جديدة ، لأن الدراسات الميدانية المتعددة في مختلف صنوف العلم أثبتت ولا سيما في النصف الأخير من القرن الماضي إمكانية دراسة اللغة ضمن العلوم الفكرية والمعرفية (٧٤) .

" ومن العرض التاريخي الموجز للاتجاهات المتعددة ذات الصلة بالأسس البيولوجية للغة تبين أن الإنسان قد فكر بهذا الموضوع الحساس منذ قرون وبطرق كثيرة ، فثبت أنه متميز بلغته ، وهو المخلوق الوحيد الذي لديه القدرة على تكوين صور ذهنية محددة ودقيقة إلى حد ما عما يواجهه عن طريق الأصوات اللغوية ؛ تكوين صور تأثير

بدورها أفكاراً واقعية جديدة ، وقدرته هذه معهودة لدينا إلى درجة نسينا فيها الظاهرة الكامنة وراءها (٧٥) .

فاكتساب الأطفال الصغار للغة من أبرز الإنجازات البشرية ، ففي سنين قليلة يكتسبون خبرة لغوية متميزة ، على الرغم من عدم تلقينهم سوى قليل من الرعاية المنظمة وعلى الرغم من تزويد الأهل المتكرر لهم بمعلومات قد تكون مغلوبة أحياناً .

ولكن كيف يتعلمون اللغة ؟ أيتعلمون الكلام وهم يقلدون ما يسمعون من أصوات وكلمات وجمل ؟ أيتعلمون لأن الكبار يمدحونهم ويعترفون بهم حين يتكلمون بشكل صحيح نحويًا ، ويعتبون عليهم برقة حين يتكلمون بشكل غير صحيح نحويًا ؟

فنحن لا نعي آليات اكتساب اللغة ، ولا نبذل جهداً كبيراً لفهم جمل ودلالاتها ، وعملنا هذا مسلّم به ، والرأي السائد بأن الأطفال يكتسبون لغتهم الأم بالمحاكاة رأي مازال إلى اليوم راسخاً في أذهان البشر على الرغم من معارضة نوام تشومسكي وستيفين بينكر لهذا الرأي .

فهذا هو تشومسكي يرى أن وراء شفافية اكتساب الطفل للغة وسهولته وبداهته نظاماً عاماً ؛ " لأن أي لغة بشرية هي نظام من الشمولية المدهشة ، وتعلم أي لغة بشرية هو إنجاز فكري كبير بالنسبة إلى كائن لم يخلق لهذه المهمة وحسب ؛ إنجاز يقوم به طفل عادي بقليل من الاحتكاك اللغوي النسبي ، ومن غير دروس مميزة فيستطيع أن ينقل

يتعلمه الطفل ليس مدخرات مادية إنما قواعد يستعملها في السماع والكلام .

في الواقع، عندما نتكلم نوافق بين عدد متناهٍ من العناصر، أي الكلمات، كي نوجد لا تنهاياً من بُنى أكبر، أي الجمل. وحسب (تشومسكي)، لا يمكن أن يكون اكتساب اللغة جعبة استجابات لمنبهات (مثيرات)، إذ إن كل جملة ينتجها متكلم أو يفهمها قد تكون ترتيباً (تركيباً) من الكلمات جديداً تماماً، خصوصاً أن اللغة هي مهارة معقدة يحكمها عدد كبير من القويعات والمبادئ التي توجه توجيهها خاصاً ترتيب الكلمات ضمن الجمل (النحو).

وبعبارة أخرى، نحن نستخدم قانوناً code من أجل ترجمة تنسيقات الكلمات إلى تركيبية أفكار. هذا القانون أو مجموعة القواعد اسمها (قواعد اللغة التوليدية)، (أو التوليدية) ولا يجوز خلطها مع تلك (الفرضية أو مع الأسلوبية) التي يعلمونها في المدرسة أو في كراسات الإنشاء، والتي يكمن هدفها الأساسي في إكساب الأطفال السيطرة على ضبط الكتابة القواعدية للغة. أما قواعد اللغة التوليدية فتتوافق ومجمل المعايير التي تجعل من الممكن مثلاً أن نقول (رأيت جميع المراكب) ولا نقول (رأيت جميعاً المراكب).

فالأطفال مع ذلك قادرون، قبل سن خمس سنوات- دون تعليم صريح- على أن يستخدموا هذه المعايير المعقدة على نحو غير واع كي ينتجوا ويؤولوا جملاً مترابطة لم يصادفوها من قبل قط. هذا صحيح رغم الكفاءات غير المتساوية بين الأفراد والتباينات

أفكاره وأحاسيسه إلى الآخرين ويثير عندهم أفكاراً جديدة وأحكاماً وملاحظات متنوعة ، بوساطة بناء عام من القواعد المميزة والأسس المرشدة " (٧٦)

لقد كشف تشومسكي النقاب عن أشهر الأدلة على " غريزية اللغة " (٧٧) ؛ أدلة أشار إليها قبله كل من " لايبنيثس" و " داروين " (٧٨) وأظهر خاصيتين أساسيتين للغة هما :

- تتكون الجملة التي ينطقها الإنسان أو يفهمها - حرفياً - من تركيب لفظي فريد وجديد جداً ؛ أي أن اللغة لا يمكن أن تكون ذخيرة من احتمالات مختلفة من ردود الأفعال ؛ ولهذا يجب أن يحوز الدماغ مرشداً أو برنامجاً يستطيع أن يولد به قدراً غير محدود من الجمل من قائمة محدودة من الألفاظ ، ويسمى هذا البرنامج بـ " النحو الذهني " (٧٩).

- وتتخلص الخاصية الثانية للغة باكتساب الأطفال هذه القواعد العامة بشكل لافت وسريع جداً ، فهم قادرون على تقديم تأويلات مقنعة عن تراكيب جمالية جديدة تماماً لم يسبق لهم أن سمعوها من قبل .

والجانب اللافت في الكفاءة اللغوية (٨٠) يتجلى في إبداعية اللغة - كيف نقول - أي في كفاءة المتكلم في إنتاج جمل جديدة يفهمها الآخرون مباشرة على الرغم من عدم وجود أي تشابه فيزيائي بينها وبين المعهود من الجمل (٨١).

ففي وقت قصير نسبياً يتعلم كل طفل أن ينطق ويفهم جمللاً مستعينا بمادة أولية ، لا بل ويستعمل جمللاً لم يسبق له أن سمعها ولم يستطع محاكاتها أو تخزينها ، هذا يعني أن ما

يتضح من هذه التجربة أن الأطفال قبل الولادة قادرون على تمييز لغتهم الأم من اللغات الأخرى ، فهم يقدرّون على سماع الإيقاعات الصوتية النبر والمسار الزمني للغة الأم وهم في الرحم ؛ لأن هذه القضايا تتغلغل إلى داخل الجسم^(٨٤).

وهنا تدلي العالمة اللغوية الألمانية بوسمان بدلوها فتري أن اكتساب اللغة^(٨٥) من منظور تشومسكي هو عبارة عن عملية نضج مستقلة تستند إلى آلية فطرية لاكتساب اللغة^(٨٦) ؛ عملية تفسّر ظاهرة اكتساب اللغة بشكل نحوي صحيح وسريع جداً عند الطفل النامي ، فتشكل قواعد هذه الآلية الكليات أو الخصائص المشتركة في اللغات جميعها^(٨٧) .

وبهذ الموقف يدخل تشومسكي نفسه في تيار تراث همبولدت الذي رأى أن اكتساب اللغة هو نوع من نضج القدرة اللغوية الفطرية ، وعملية النضج هذه تنظمها عوامل داخلية بوساطة صيغة لغوية فطرية تتشكل بالخبرة ، واللغة بذلك نوع من البناء الكامن في العقل ؛ بناء يتطور ويثبت مشروطاً بخبرة لغوية مميزة .

يرى همبولدت أنه بالإمكان إثبات صيغة نحوية متماثلة في اللغات كلها ؛ متماثلة في بناها الداخلية العميقة ومختلفة في بنيتها السطحية ، فأسس التنظيم الفطرية تحدد صنف اللغات الممكنة وتحدد خصائص اللغة التي تكتسب في العادة^(٨٨)

ويفترض تشومسكي في نظريته عن النمو اللغوي نظاماً توليدياً من القواعد يعدّه مهماً

القائمة في البيئة الثقافية والعاطفية، بل ورغم تعرض الطفل جزئياً إلى البدائل النحوية التي تتيحها لغته .

ويعترف تشومسكي بأن النموذج السلوكي لنظرية التعلم الذي نادى به سكينر غير كاف لشرح آلية تعلم اللغة ، واستناداً إلى نظرية سكينر وإلى الدراسات والاتجاهات العلمية الأخرى وضع تشومسكي نظرية عن نحو ذهني وعن نحو شمولي متضمنين في خاصتي اللغة الأساسيتين . فالأطفال عندهم مجهزون ببرناج فطري عام مشترك في قواعد اللغات جميعها - مجهزون بنحو شمولي^(٨٩) - يمكنهم من استخلاص النموذج النحوي للغتهم الأم من اللغة المنطوقة^(٩٠) .

فالأطفال كلهم كما يظهر من نتائج الأبحاث الجديدة يولدون بقدرات لغوية ، ويكونون قادرين على تمييز لغتهم الأم من لغات أخرى ، إلا أن علماء النفس اختبروا هذه الظاهرة فأسمعوا أطفالاً من أصل فرنسي لغة غريبة عنهم كالروسية ، وراقبوا حركة مصاصاتهم أثناء ذلك ، فلم يلاحظوا عندهم اهتماماً كبيراً ، إلا أن هذا الاهتمام قد تغير بشكل لافت حين أسمعوا الفرنسية .

وحين أسمعواهم أنغماً لغوية منقاة ، رضعوا بعمق أكثر مما كان الأمر عليه لدى إسماعهم لغة غريبة ، وعندما أرجع الشريط المسجل ، واقتصر الأمر على سماع الصوامت والصوائت كانت استجابتهم متماثلة أيضاً .

توفيقية دقيقة، أو بعبارة أخرى هي (ممارسة لا متناهية، أساسها وسائل متناهية).

إنه يعترف أن الأطفال يتعلمون الكلام بطريقة منظمة جداً ، فهم يحاولون في وقت مبكر وبدافع ذاتي لا بتوجيه خاص - حل مشكلة القوانين التي ربما صيغت قواعد الكبار وفقها .

" ومن الناحية الشكلية يمكننا أن نعد اكتساب الطفل للغة نوعاً من البناء النظري ، فالطفل يكتشف نظرية لغته مستعيناً بقدر قليل جداً من مواد هذه اللغة ، ونظريته اللغوية ليس لها مدى تقديري كبير جداً فقط وإنما تجعله كفوئاً على رفض قدر كبير من المواد نفسها التي بنيت النظرية على أساسها .

فاللغة المنطوقة مثلاً تتكون في جزء كبير منها من قطع ومطالع غير صحيحة ، وتغييرات في التركيب ، واضطرابات أخرى في الصيغ الأساسية التامة ، إلا أنه يتعلم - وهذا ما يتضح في الدراسات المجراة على الاستعمال اللغوي كامل التطور - النظرية الأساسية المثالية ، وهذه حقيقة لافتة ، وعلاوة على هذا لا يجوز أن ننسى أن الطفل يبني هذه النظرية المثالية من غير أي تعليم خارجي ، وأنه يكتسب هذه المعرفة في وقت لم يصبح فيه بعد قادراً على القيام بإنجازات عقلية عامة في كثير من المجالات الأخرى ، وأن تلك الكفاءة غير مرتبطة بالعقل أو بمسار الخبرة الطفولية نسبياً^(٩٠) .

لإنتاج اللغة وفهماها أيضاً ، ويرى أن اللغة هي شكل من الصيغ والمفاهيم ؛ شكل يقوم على نظام القواعد الذي يحدد العلاقات المتبادلة بين تلك الصيغ والمفاهيم وترتيبها وتنظيمها . وهذا النظام توليدي مادام يوصل إلى استعمال غير محدود من وسائل محدودة ، إلا أن هذه الوسائل المحدودة يمكنها أن تنظم بشكل يكون تأثيرها غير محدود^(٨٩)

فنحو لغة الأطفال الصغار لا يستند في أي حال من الأحوال إلى محاكاة خالصة ، على الرغم من تأثير المحاكاة والتصحيح والمحيط جميعها في اكتساب اللغة ، إلا أن تشومسكي يزعم أن الدور الأساسي يظهر من خلال نضج العوامل البيولوجية غير أن هذا لا يتطابق بالضرورة مع الواقع .

في النصف الأول من القرن العشرين، كانت اللغة ما تزال تُعد مجرد مجموعة تقليدية من الإشارات (العلامات)، ونتاجاً ثقافياً، وتجلياً لقابلية الكائن البشري في استخدام الرموز. وفسر اكتساب اللغة آنذاك لدى (التيار السلوكي) على أنه اكتساب، كأى اكتساب، لأية تقنية أخرى: المحاولة والخطأ والمكافأة، وأن الطفل يتعلم لغته بمجرد التقليد، بالإصغاء وترداد ما يقوله الراشد، إلا أن عالم اللغة الأمريكي الشهير تشومسكي يرى أن مثل هذه الرؤية للأشياء لا تتوافق البتة مع بعض الخصائص الأساسية للغة البشرية، ومنها خصوصاً أن اللغة هي منظومة

التفاعل مع اللغات البشرية ؛ " لأن الطفل لا يكتسب اللغة إلا في بيئة محدثة " (٩٤) .
وفي تجربة أخرى على المصاصات أثبت علماء النفس أن الرضّع جميعهم يأتون إلى العالم بوصفهم مصوتين عالميين [قادرين على إصدار الأصوات والصرخات]، فهم يستطيعون أن يميزوا أصواتاً مفردة كالباء وال P في مقاطع صوتية متنوعة ، فعلى سبيل المثال يستطيع الأطفال الأسبان تمييز pas من bas الواردة في الإنجليزية على الرغم من عدم وجودها في لغتهم إطلاقاً ، أما الكبار فلم يعودوا يجيدون هذا التفريق بين الوحدات الصوتية ، فهم يستطيعون تمييز الأصوات فقط عندما تفصل الصوامت عن المقاطع وتعرض عليهم بوصفها أصواتاً صريرية منطوقة ببطء (٩٥) .

يتعلم الأطفال في سني حياتهم الأولى أصواتاً أخرى من لغتهم ، فيبدوون في الشهر السادس بجمع الأصوات المختلفة التي تضعها لغتهم في صنف وحدة صوتية واحدة ، و يستمرون في تمييز الأصوات المختلفة التي تعدها لغتهم وحدات صوتية مفصولة ، وفي العمر بين الشهر الخامس والسابع يجرب الأطفال -لاعبين- أصوات الهمس والصفير والرقرة والزلق والفرقة التي ترن وكأنها صوامت وصوائت ، وبعد شهر أو شهرين يتأتى الرضّع وعلى نحو مفاجئ بمقاطع صحيحة مثل : دي - دي - دي - ني - ني - ني - ني - با - با . . . والأصوات هذه عامة تتكون من نماذج صوتية ومقطعية تستعمل في

فالطفل - قبل الولادة وبعدها - لا يستطيع بعد تحديد نوع اللغة التي سيستعملها ، إلا أنه يجب أن يعرف أن نحوه هذا يجب أن يكون قد تكوّن من شكل محدد مسبقاً ، ويجب أن يكون قد استبعد أيضاً كثيراً من الأشكال اللغوية المتصورة ، وهذا البعد السيادي / النفوذي يعتبر كليات تسهل على الطفل فهم اللغة وإنتاجها وذلك بتقليل هذا التنوع من الفرضيات التي يبنيها الطفل أثناء اكتساب النحو .

" وعلى الرغم من معرفتنا القليلة نسبياً بالكليات اللغوية فنحن متأكدون من كون التنوع المحتمل للغات محددًا جداً ، أي أن اللغة التي يتعلمها كل إنسان تعرض بناء شاملاً ومتطوراً جداً يقلل من قيمته عبثاً عن طريق المادة اللغوية المجزأة الموجودة ، ومع هذا فإن بعض الأفراد في جماعة لغوية ما يتعلمون لغة واللغة ذاتها ، وهذه الحقيقة لا يمكن أن تشرح إلا بفرض كون هؤلاء الأشخاص قد استعملوا أسساً مقيدة جداً ؛ أسساً تنظم بناء النحو [وفيما عدا ذلك نحن غير متأكدين من تعلم لغة محددة بالكامل] . ونظام الأسس يجب أن يكون علامة مميزة إذ لا بد من وجود قيود كبيرة على العمل يقيد بها تنوع اللغات " (٩١)

ويرى ستيرن أن اللغة تكتسب وتتطور في مراحل محددة (٩٢) ؛ مراحل ترتبط كما يرى لينبرغ -بعمليات النضج الجسدي والعقلي ارتباطاً أوثق من ارتباطها بخبرات محددة من التعلم (٩٣) ، والشرط الدائم لذلك بالطبع هو توفير فرصة

ومن البحوث المطبقة على النماذج العادية لأخطاء الأطفال في كل مرحلة من مراحل اكتساب اللغة يستخلص أن الأطفال يبنون فرضيات عن كيفية تركيب الكلمات والجمل ليتوصلوا إلى الدلالة ، كما يبنون فرضيات عن قواعد فهم اللغة ، وعن النحو والدلالة وأحياناً لا يثبتون على فرضياتهم بالضرورة .

هذا وينتج الطفل في أثناء نموه اللغوي صيغاً مخالفة للمعيار ، وغير معتمدة على المحاكاة لكونها ذات خصائص منظمة لتعلق الأمر هنا بالتعميم الواسع للقواعد -بمعنى تكرار استعمال القاعدة الواحدة- فإن جرى وتعلم الأطفال كيف تصاغ صيغة الماضي من الأفعال النظامية مثلاً، فإنهم يعممون هذه القاعدة على الأفعال الشاذة أيضاً ، وهذا ما يؤدي إلى بناء صيغ لغوية غير صحيحة مثل " gehte /schwimmte /denkte" علماً بأن هذه الأفعال لها صيغ خاصة في الماضي القريب في نظام اللغة الألمانية حيث إن الأصح أن يقولوا [, dachte , ging schwamm]، فالأطفال يصوغون هذه الكلمات على الرغم من عدم سماعهم أي شخص ينطق بها (١٠٠) .

هذه الأخطاء دليل على استناد اكتساب الطفل للغة إلى استعمال القواعد لا إلى محاكاة ما يقوله الكبار ، وافترض معظم علماء اللغة وجود الكليات إشارة وليس دليلاً على " أن اللغة ليست إبداعاً ثقافياً بل هي إنتاج غريزة بشرية خاصة " (١٠١)

الغالب في اللغات كلها ، ويبدل الأطفال المقاطع و" يظهرون رطانة حلوة تكاد تبدو وكأنها جمل صحيحة " (٩٦) ، وفي عمر عشرة الأشهر تقريباً يتقرب الأطفال من أهلهم ويحسمون أمرهم بالنسبة إلى الوحدات الصوتية في لغتهم ويميزونها (٩٧)

إن مرحلة التأتأة مهمة جداً في عملية اكتساب اللغة ؛ لأن الأطفال يتعلمون في أثناء سماعهم ووأوتهم الخاصة تحريك أعضاء نطقهم بطريقة محددة ليحدثوا التغييرات الصوتية المختلفة ، وليجدوا الوحدات الصوتية والألفاظ ومواقع الألفاظ المستعملة في اللغة الأم ليتمكنوا بالتالي من اكتسابها ، وحتى الأطفال الصم يتأثنون ، وتظهر هذه التأتأة متأخرة عندهم ، وتكون بسيطة في تركيبها " وحين يستعمل الأهل لغة الحركات يتأثروا الأطفال بأيديهم بانتظام " (٩٨)

يفكك الأطفال اللغة التي يسمعونها إلى أبسط أجزائها ثم يكتشفون القواعد التي يركبون بها الأجزاء ؛ ليعبروا عن أفكارهم وأحاسيسهم ، فيبنون لأنفسهم قواعدهم الخاصة استناداً إلى قليل من الألفاظ والجمل المفهومة . وبخبرات لغوية متقدمة يرفضون فرضية الآخرين ويضعون فرضية جديدة مكانها إلى أن تحل المشكلة ، وفي الوقت الذي تراههم يتبعون فيه القواعد النحوية ، تراههم يولدون كلمات وجملاً جديدة لم يسبق لهم أن سمعوا بها ، ويميلون إلى رفض التصحيحات ، ولا يستفيدون كثيراً من التمرين الإضافي أيضاً (٩٩) .

مزيجة اكتسبوها إلى جانب لغتهم ، فأخذوا الألفاظ من سادة الاستعمار وممiliki المزارع ، أخذوا الألفاظ التي سادت في اللغة الجديدة . وترى بوسمان هنا أن اللغة المزيجة متميزة بمفرداتها المختزلة جداً ، وبميلها إلى الإشارة إلى الأشياء على نحو غير مباشر (التوصيف بألفاظ أخرى) ، وبميلها إلى استعمال المجاز واستعمال نظام صوتي مبسط فضلاً عن ميلها إلى تقليص التراكيب الصرفية والنحوية (١٠٣) ، وهذه اللغة المزيجة تصبح لغة مستقلة استقلالاً نحوياً تماماً في اللغة الهجينة ، والفضل في هذا الاكتشاف يرجع إلى الأطفال الذين ينمون باللغة المزيجة أكثر من نموهم بلغتهم الأم .

وتذكر بوسمان أيضاً أن اللغوي "بيكرتون ١٩٨٣ قد دلل بالمتكلمين الحاليين في جزيرة هاواي على أن الكفاءة اللغوية الفطرية للإنسان " تفرض تراكيب نحوية على اللغة الهجينة الخالية نسبياً من القواعد " (١٠٤) وبناء على هذا اللغوي يرى بينكر أن الأطفال لا يقبلون بأي شكل من الأشكال الاكتفاء بإعادة إنتاج مساهمات أهلهم المجردة من القواعد ، ويشكلون بدلاً من هذا بنياناً نحوياً من أجزاء الكلمات ، ويوسعون اللغة المزيجة وكأنها لغتهم الأم ، فتستبعد الاختزالات والتراكيب والتسهيلات الوظيفية والنحوية الموجودة في اللغة المزيجة ، وبدلاً من اللغة المزيجة - المتعددة الأصول - تحل لغة هجينة Kreolsprache ، وهي لغة مبتكرة معيرة ومفعلّة نحوياً (١٠٥) .

أكد تشومسكي الإبداعية عند اكتساب اللغة وميز الأخيرة عن اكتساب الحيوان للغة (عن طريق المثير والاستجابة المشروطة) التي هي عملية محاكاة خالصة. فالكساب اللغة من قبل الأطفال ليس عملية محاكاة خالصة، بل عملية إبداعية فطرية، والدليل على ذلك أننا عندما نكتسب لغة ما فإننا نستطيع فهم جمل لم نكن قد سمعناها قبلاً (أي جمل غير مألوفة لنا)، فضلاً عن فهم ما سبق أن تعلمناه من جمل.

فمتكلم اللغة، أي لغة، له القدرة على أن ينتج ويفسر مثل هذه الجمل الغريبة وأن يقدم أحكاماً على مقبوليتها. وهذا يدل من دون شك على أن اكتساب اللغة ليس مجرد محاكاة فحسب: فالتعليم يجب ألا يحتوي على قائمة من الجمل يضعها الآخرون ويستظهرها الدارسون بطريقة ببغاوية.

ويرى بينكر أن الغريزة اللغوية أو حيازة لغة هي ظاهرة كلية ؛ لأن الأطفال يبتكرون اللغة من جديد عبر الأجيال ولا يقدرّون على ردها بسهولة (١٠٦) ، والإشارات الأولى إلى كيفية إبداع الإنسان للغة - أو ما يسمى باللغة المزيجة piding - ترجع إلى العهد الاستعماري ، واللغة المزيجة هي لغة خليطة نشأت عن حالة طارئة ، ففي عهد العبودية وعهد المزارع كان على البشر أن يتواصلوا بلغات مختلفة - من غير تفاهم لغوي متبادل ، ليتمكنوا من إنجاز عملهم ، لأنه لم تسنح لهم الفرصة لتعلم لغة الآخرين ، فركبوا لغة

المحادثات وسرعتها بل وحتى مقاطعتها
ويصبح تغيير الموضوع سهلاً عليهم ؛ وعندما
تتعاون هذه الكفاءات اللغوية مع لغة الجسم -
الحركات والإيماءات - يكتمل نقلهم للغوي
للمعلومات (١٠٧) .

٦- الخلاصة

من خلال تحليل مواقف المذهب السلوكي
وعرض مواقف الاتجاه العصبي اتضح لنا أن
الاتجاهين كليهما يطالبان بالخصائص الأساسية
لاكتساب اللغة ، و تشومسكي وسكينر يمثلان
بالطبع اتجاهين محددتين ، فإن اعتبرنا تعلم
اللغة- كما لدى سكينر- مجرد نتيجة لسلوك
المحاكاة ، فإننا نعتبره سرداً لتاريخ عملية
التكيف مهملين في ذلك قرارات معرفية لها
أهميتها بالنسبة للفرد كتركيب الاكتساب
الفطرية والقدرة على فهم التركييب النحوية
ذهنيا والقدرة على تطبيق عمليات الاتصال .

صحيح أن تشومسكي قد اشترط لاكتساب
اللغة بالمقابل آليات فطرية يجب تفعيلها عند
الطفل عن طريق جماعة لغوية خاصة فقط ،
إلا أنه لم يول العالم الحقيقي للطفل أي أهمية ،
فالعالمان السابقان لا يلقيان بالاً للآثار
الاجتماعية والثقافية في اكتساب اللغة ؛ فلا
يراعيان المستوى الطبقي والدين والسلوك
الجماعي فضلا عن إهمالهم الوظائف التفاعلية
أصلاً .

واكتساب اللغة -برأينا- لا يتطور إلا على
أساس آلية فطرية لاكتسابها ؛ آلية تستند
استناداً مميّزاً إلى أعمال التضايف والتخزين
الفكري ، فإن وجد الوليد عملياً برنامجاً نحوي

و هذه الظاهرة تلاحظ لدى الأطفال البكم
أيضاً ، فالأطفال الذين يتكلم أهلهم نوعاً من
لغة الحركات لتعلمهم إياها متأخرين نسبياً
يتمون لغة أهلهم الحركية والهجينة ، و
يستبدلون التوصيفات المتعددة وغير المباشرة
والسهلة بإشارات مبتكرة ؛ إشارات تتطور إلى
لغة جميلة سلسلة بأدوات نحوية مساعدة ، وهنا
يسهم الأطفال في نشأة لغة هجينة أيضاً (١٠٦) .
إن استناد اكتساب اللغة إلى أساس أحيائي
فطري (بيولوجي - فطري) لا يعني بالطبع
أنه يتم من دون قصد (إرادة) بل على
العكس فإن الأطفال يبذلون دائماً منشغلين ببناء
الفرضيات وفحصها خلال تعلمهم قواعد
نحوية جديدة ودلالات جديدة للألفاظ . وكثيراً
ما يغري الكبارُ الأطفالَ بميلهم إلى تسامح
الأخطاء التي يقعون فيها أثناء اكتساب اللغة ،
أو بميلهم إلى اعتبار تلك الأخطاء مسلية أحياناً
، وتشير هذه الأخطاء بالطبع إلى إجراءات
بناء الفرضية واختبارها كإشارتها إلى الدور
الفاعل للطفل في عملية اكتساب اللغة .

ويدلي تسيباردو بدلوه مرة أخرى في هذا
السياق فيرى أن الأطفال يكتسبون قدرات
لغوية كثيرة في أثناء عملية النضج ، فيتعلمون
استعمال اللغة للإقناع ، والإخبار ، والتزلف ،
والتستر ، فيجربون أوجهها شعرية جميلة
كالمجازات والكنائيات ؛ إنهم يبتكرون ألفاظاً
وأدوات جديدة ليعربوا عما هو موثوق به
لديهم ، وليعبروا عن خيالاتهم ومخاوفهم ،
إنهم يتقنون كفاءات كثيرة فيجرون محادثات
بسيطة ويكونون قادرين على ملاحظة سير

وإلى الاهتمام بشخصهم ليتمكنوا من النمو والاتساع اللغوي بشكل حر واختياري .
والمساهمة اللغوية السلبية لوسائل الإعلام لا تكفي في معظم الأحيان للتنظيم اللغوي الصحيح وفهمه نظراً لغياب الجدل الحواري بالمادة اللغوية التي تم اكتسابها حديثاً .

وكثيراً ما يساعد العرض اللغوي غير المراقب لوسائل الإعلام الأطفال ، وهذا لا يتم إلا في تواصل بشري رزين ، وهنا فقط يستطيع الطفل اختيار الاستعمال الصحيح للإشارات الجديدة ؛ لأنه يحصل على تبليغ مباشر بالإعادة .

وفي الختام نرى أن كفاءة تعلم اللغة تستند إلى آليات فطرية ، وعندما لا يقابل الأطفال بالطبع مادة لغوية كافية ومنقاة فإنهم لا يكتسبون أي لغة ، ومما نصنفه تحت الآليات الفطرية هنا :

- حاجة الطفل العامة للاستعلام
- القدرة على التواصل الذاتي
- ربط التعبيرات اللغوية بمضامين وأفعال وتخزينها

صحيحاً أمامه - وهذا ما لا يمكن تأكيده في الوضع الراهن للدراسة الدماغية - فمن المهم جداً الإشارة في هذا السياق إلى وجود رابط بين الفكر والنمو اللغوي ؛ لأن الأطفال لا يتواصلون إلا باللغة ، وبها يستطيعون أن يطوروا وعياً فاعلاً عن ذاتهم الخاصة-أنا- .

وللبينة برأينا دور فاعل في اكتساب اللغة ، ولهذا ينبغي أن ندخل السلوك الانفعالي بين الأهل والأطفال تحت لوائها ، فمن دون رغبة، وحب ، وميل ، لا يكتسب أي طفل أي لغة ؛ لأن الأهل يتكلمون مع أطفالهم بشكل مختلف عن كلامهم مع الكبار ، فيتحدثون مع الأطفال بشكل معاصر ، وببطء ووضوح ، وبكثير من الإلحاح- والتمرين والتكرار- وبقليل من التجريد إلى درجة يسهل فيها على الأطفال فهم المضمون الملقى بين أيديهم .

وثمة أشياء أخرى بالطبع لها تأثير كبير في اكتساب الأطفال للغة كالمحيط الذي يعيشون فيه ، والتعامل مع متحدثين آخرين ، كما أن لوسائل الإعلام المتنوعة في أيامنا هذه دوراً مهماً وبارزاً في اكتساب اللغة ومنها التلفاز والإذاعة والمصوتات والكتب ، وهي وسائل تواجه الأطفال بقدر كبير من المادة اللغوية التي يحصلون منها على إثارات كبيرة لتعلم اللغة .

وعلى خلاف نسبة لا بأس بها من الأهل تقدم وسائل الإعلام للأطفال عرضاً مناسباً جداً من التعبيرات اللغوية ، ويضاف إلى هذا أن الأطفال بحاجة ماسة إلى الاحتكاك مع الأهل

الهوامش والمصادر

- ١- ينظر : Marx , Otto : Die Geschichte der Ansichten über die biologische Grundlage der Sprache . In : Lenneberg , E. : Biologische Grundlagen der Sprache . ٣. Aufl. Frankfurt/ M. : Suhrkamp . ١٩٩٦ , S. ٥٤١
- ٢- ينظر_ Francescato, Guiseppa : Spracherwerb und Sprachstruktur beim Kinde . Stuttgart : Klett ١٩٧٣ , S ٨
- ٣- المصدر السابق ص ٨
- ٤- ينظر : Das neue Lexikon in Farbe . Bd.٢.Herrsching ١٩٧٩ . S ٤٤٦
- ٥- ينظر : Marx Otto , S.٥٤٤
- ٦- المصدر السابق ص ٥٤٥
- ٧- ينظر : Steinthal, Heyman : Aristoteles' De Anima . Übersetzt von K. Foster u. S. Humphries. London ١٩٥١ . Zit. n. Marx . Otto , S ٥٤٥
- ٨- المصدر السابق ص ٥٤٥
- ٩- المصدر السابق ص ٥٤٥
- ١٠- المصدر السابق ص ٥٤٨
- ١١- المصدر السابق ص ٥٤٩
- ١٢- ينظر : Augustin , Aurelius : Confessiones ١ , ٨ > Zitiert nach der Deutschen Augustinusausgabe Bd. ١١ , ١٩٦٤ , Zit. n. Francescato , G. : S ٩
- ١٣- Marx , O - ص ٥٤٩
- ١٤- المصدر السابق نفسه ص ٥٥٠
- ١٥- المصدر السابق نفسه ص ٥٥٠
- ١٦- Francescato , G. S. ٨ -
- ١٧- Marx. O. - ص ٥٥١
- ١٨- المصدر السابق ص ٥٥٣
- ١٩- المصدر السابق نفسه ص ٥٥٣
- ٢٠- المصدر السابق نفسه ص ٥٥٦
- ٢١- المصدر السابق نفسه ص ٥٥٦
- ٢٢- المصدر السابق ص ٥٥٦

- ٢٣ - المصدر نفسه ص ٥٥٧
- ٢٤ - المصدر نفسه ص ٥٥٨
- ٢٥ - ينظر : Sprache und sozialer Wandel . Stuttgart , Kohlhammer , ١٩٨١ , S. ١٣
Herder : ١٧٧٢ , ١٩٦٩ , S. ٨٥ > Zit.n. : Hartig , M. :
- ٢٦ - المصدر السابق نفسه ص ١٣
- ٢٧ - M. Otto ص ٥٥٩
- ٢٨ - المصدر السابق نفسه ص ٥٥٩
- ٢٩ - المصدر نفسه ص ٥٦١
- ٣٠ - المصدر نفسه ص ٥٦١
- ٣١ - ينظر : Entwicklung der Sprachwissenschaft seit ١٩٧٠ . . Helbig , Gerhard :
٢. Aufl. Opladen : Westdeutscher Verlag , ١٩٩٠ S.٥٩
- ٣٢ - ينظر : Der Begriff ergon (gr. Werk) bezeichnet die Sprache als ein
sttisches Produkt einer abgeschlossenen Tätigkeit . Bußmann , H. : Lexikon
der Sprachwissenschaft ٢. Aufl.Stuttgart ١٩٩٠ S. ٢٢١. Dem
entgegengestellt steht der Begriff enereia (gr. Tätigkeit) , der die Sprache
als wirkende Kraft bezeichnet . Bußmann , S. ٢١٠
- ٣٣ - ينظر : Entwicklung der Sprachwissenschaft seit ١٩٧٠ . . Helbig , Gerhard :
٢. Aufl. Opladen : Westdeutscher Verlag , ١٩٩٠ S.٥٩
- ٣٤ - ينظر : Der Sprachinstinkt . München : Kindler , ١٩٩٦ , S. ٢٣
Pinker , Steven :
- ٣٥ - ينظر : Behaviorismus . Hrsg. Von Carl F. Graumann .
Kiepenheuer und Witsch . ١٩٦٨ , S. ٧
Waston, John B . :
- ٣٦ - ينظر : Entwicklung der Sprachwissenschaft seit ١٩٧٠ . . Helbig, Gerhard :
S. ٧٥
- ٣٧ - ينظر : Bußmann, H. : Lexikon der Sprachwissenschaft. S. ١٢٨
- ٣٨ - ينظر : Bußmann, H.: Lexikon der Sprachwissenschaft. S. ٨٦
- ٣٩ - ينظر : Waston, John B. : Behaviorismus . Hrsg. Von Carl F. S. ٧
- ٤٠ - ينظر : Psychologie . ٥. Aufl. Berlin : Springer :
١٩٩٢ , S. ٢٢٩
Zimbardo , Philipp G. :
- ٤١ - ينظر : Bußmann H. : Lexikon der Sprachwissenschaft. S. ٢٠٩

- ٤٢ - ينظر : S.٢٢٨ .Psychologie , Philipp G. : Zimbardo
- ٤٣ - ينظر : المصدر السابق نفسه ص ٢٢٩
- ٤٤ - ينظر المصدر السابق نفسه ص ٢٢٩
- ٤٥ - ينظر : ١٢٣ . S. Behaviorismus . Hrsg. Von Carl F. S. Waston, John B.
- ٤٦ - ينظر : S. ٧٤٠ . Lexikon der Sprachwissenschaft. H. : Bußmann
- ٤٧ - ينظر : المصدر السابق نفسه ص ١٢٩
- ٤٨ - ينظر : S.٢٤١ .Psychologie , Philipp G. : Zimbardo
- ٤٩ - المصدر السابق ص ٢٤٢
- ٥٠ - ينظر : Appeton Century Crofts, Inc. New York ١٩٥٧. S. ١ . Skinner,B.F.: Verbal Behavior.
- ٥١ - المصدر السابق ص ٣
- ٥٢ - ينظر : S. ١٢٩ . Lexikon der Sprachwissenschaft. H. : Bußmann
- ٥٣ - ينظر : Appeton Century Crofts, Inc. New York ١٩٥٧. S. ٢ . Skinner,B.F.: Verbal Behavior.
- ٥٤ - ينظر المصدر السابق ص ٢٠
- ٥٥ - ينظر : Peter D.Lang : Myths Sprache . Frankfurt/ M.: Sater , Heidemarie : ١٩٨٠.
- ٥٦ - ينظر : المصدر السابق نفسه ص ١٨٢
- ٥٧ - ينظر : Appeton Century Crofts, Inc. New York ١٩٥٧. S. ٦١ . Skinner,B.F.: Verbal Behavior.
- ٥٨ - ينظر : Peter D.Lang : Myths Sprache . Frankfurt/ M.: Sater , Heidemarie : ١٩٨٠, S.٢٠٥.
- ٥٩ - ينظر : Skinner, B.F.: ص ٥٨
- ٦٠ - ينظر : Sater , Heidemarie , ص ٢٠٧
- ٦١ - ينظر : Skinner,B.F : ص ١٤٢
- ٦٢ - المصدر السابق ص ٨٤
- ٦٣ - المصدر السابق ص ١١٩
- ٦٤ - ينظر : Sater , Heidemarie : Myths Sprache . ص ١٩٠
- ٦٥ - المصدر السابق ص ٢٠٩
- ٦٦ - المصدر السابق ص ٢٠٩

- ٦٧ - المصدر السابق ص ١٩٠
- ٦٨ - المصدر السابق ص ١٨٨
- ٦٩ - ينظر الفقرة الثالثة / ١ في هذا العمل
- ٧٠ - ينظر : . Psychologie , Philipp G. : Zimmermann , ٢٤٤ ص
- ٧١ - ينظر : Skinner, B.F.: Verbal Behavior ، ص ١٢
- ٧٢ - ينظر : Sater , Heidemarie : Mythos Sprache ، ص ٢٠٤
- ٧٣ - ينظر المصدر السابق ص ٢٠٤
- ٧٤ - ينظر : . Der Sprachinstinkt , S. : Pinker ، ص ١٩
- ٧٥ - ينظر المصدر السابق ص ١٧
- ٧٦ - ينظر : Reflexionen über die Sprache . ٣. Aufl. : Chomsky , Noam
- Frankfurt/M.: Suhrkamp. ١٩٩٣ . ص ١٢
- ٧٧ - ينظر : Pinker, S. ، ص ٢٥
- ٧٨ - ينظر الفقرة الثانية في هذا العمل ص
- ٧٩ - ينظر : . Der Sprachinstinkt , S. : Pinker ، ص ٢٥
- ٨٠ - ينظر : Thesen zur Theorie der generativen Grammatik . : Chomsky , N.
- ١٥ S. , Weinheim ١٩٩٥ ، ٢. Aufl. ، ص ١٥
- ما يعرفه المتحدث عن لغته ضمناً هو ما يسميه تشومسكي بالكفاية ، وما يفعله هذا المتحدث عملياً
يسميه تشومسكي بالأداء ينظر في هذا الباب ما جاء عنده في المصدر المذكور أعلاه
- ٨١ - ينظر المصدر السابق ص ١٦
- ٨٢ - ينظر : Pinker, S. ، ص ٢٦
- ٨٣ - ينظر المصدر السابق ص ٢٦
- ٨٤ - ينظر المصدر السابق ص ٣٠٥
- ٨٥ - ينظر : Lexikon der Sprachwissenschaft. ٢. Aufl. : Bußmann H.
- Stuttgart ١٩٩٠ . ص : ٧٠٢
- ٨٦ - ينظر المصدر السابق ص ٧٠٥
- ٨٧ - ينظر المصدر السابق ص ٨١٩
- ٨٨ - ينظر : Sprache und Geist . S. ٤٢٤-٤٣٢ . In : Prillwitz , : Chomsky , N.
- S. u.a .: Der
- Kindliche Spracherwerb. Braunschweig : Wetermann . ١٩٧٥ . S. ٢٤
- ٨٩ - ينظر المصدر السابق ص ٢٢

- ٩٠ - ينظر المصدر السابق ص ٢٩
- ٩١ - ينظر : Chomsky , Noam : Reflexionen über die Sprache . ٣. Aufl. :
Frankfurt/M.: Suhrkamp. ١٩٩٣ . S. ١٩
- ٩٢ - ينظر : Stern L Stern : Die Kindersprache ١٩٨٧ . Szagun , G.:
Sprachentwicklung beim Kind Aufl. Beltz : Weinheim ١٩٩٦
- ٩٣ - ينظر : Lenneberg, E. : Die biologischen Grundlagen der Sprache .
Sprache . Kap.IV Sprache im Kontext von Wachstum und Reifung . S. ١٥٧-
٢٢١
- ٩٤ - ينظر المصدر السابق ص ١٦٨
- ٩٥ - ينظر : Pinker, S. : Der Sprachinstinkt , ص ٣٠٤
- ٩٦ - ينظر المصدر السابق ص ٣٠٦
- ٩٧ - ينظر المصدر السابق ص ٣٠٧
- ٩٨ - ينظر المصدر السابق ص ٣٠٧
- ٩٩ - ينظر المصدر السابق ص ٣٢٤
- ١٠٠ - ينظر المصدر السابق ص ٣١٦
- ١٠١ - ينظر المصدر السابق ص ٣١
- ١٠٢ - ينظر المصدر السابق ص ٣٧
- ١٠٣ - ينظر : Bußmann H. : Lexikon der Sprachwissenschaft , ص ٥٨٧
- ١٠٤ - ينظر المصدر السابق ص ٤٢٨
- ١٠٥ - ينظر : Pinker, S. : ص ٤٠
- ١٠٦ - ينظر المصدر السابق ص ٤٢
- ١٠٧ - ينظر : Zimbardo , Philipp G. : Psychologie : ص ٦٥